مقدمة في تدوين السنة النبوية*
القسم الأول

بقلم : الدكتور عبدالرحمن أحمد الأبّي
المدرس في قسم الدراسات الاسلامية

إن الحمدلله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسئيات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له[1] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد فلما كانت أمهات الكتب الستة أمرها ظاهر المكانة في دواوين الحديث النبوي ومدار الاحتجاج غالباً بما فيها من السنة النبوية خصوصاً صحيحي البخاري ومسلم لأن الامهات الستة كادت تستوعب الحديث المقبول ولم يفتها إلا اليسير فقد عنَّ لي أن أضع هذا البحث في تعريفها وبيان مكانتها من كتب السنّة المطهرة راجياً من الله سبحانه وتعالى التوفيق والعون والتيسير الى الهدف المقصود وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

تمهيد

لابد من مقدمة تكون كالمدخل الى الكلام على الأمهات الستة أبين فيها جملة كتابة الحديث من العصر النبوي الى أن دونت الأمهات.

كتابة الوحي في العصر النبوي:

ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ قد أهتم بكتابة القرآن فقد كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ ويُكتب عقب فراغ الوحي وهكذا كتب جميع القرآن في الرقاع والأديم والأكتاف واللخاف[2] وكل ما أمكن أن يكتب فيه ولم يبق شيء من القرآن إلا وقد كتب بأمر من رسول الله ﷺ كان رسول الله ﷺ إذا جاءه الوحي يستدعي يحسن الكتابة ليكتب ما أنزل عليه من القرآن[3] وهكذا كان شأن القرآن فقد كتب

(*) هذه المباحث تشتمل على مقدمة في تدوين السنة النبوية وست مباحث حول الأمهات الستة .

من جميعه من أول ما أنزل وحفظ في الصدور بأمر رسول الله ﷺ قال الله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

وقد كان لرسول الله ﷺ كتاب كثيرون بلغ عددهم زهاء الأربعين[٤] منهم الخلفاء الأربعة والزبير بن العوام وزيد بن ثابت رضي الله عنهم وقد كان الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ وحي القرآن ووحي السنة في آن واحد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ فالكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة وكل منهما وحيّ منزل قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ فقد كان القرآن يتنزل ورسول الله ﷺ يبين المراد منه كما أنه ﷺ كان يبين الأحكام ابتداءً عن طريق السنة التي سماها الله الحكمة وهي أقوال الرسول وفعاله وتقريراته ﷺ قال ﷺ "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"[٥] .

فالسنة هي الحكمة[٦] المنزلة وهي المصدر الثاني في التشريع بعد القرآن الكريم وكل منهما وحيٌ من عند الله تبارك وتعالى والسنة تسمى بالحديث النبوي أيضاً وقد كان القرآن يتنزل ويكتب ويحفظ وقت التنزيل وهكذا كتب جميعه[٧] وأما وحي السنة فكان يحفظ في الصدور وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون الحديث خوفاً من النسيان وقد كان لهم حفظ ثاقب وقد كان الرسول ﷺ يأمر بحفظ الحديث وينهاهم عن كتابته في ابتداء الأمر كما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوء مقعده من النار"[٨].

وقال أبو سعيد جهدنا بالنبي ﷺ أن يأذن لنا في الكتاب فأبى".

وفي لفظ أنهم أستأذنوا النبي ﷺ في أن يكتبوا عنه فلم يأذن لهم[٩] .

فهذه الأحاديث تدل على النهي عن كتابة الحديث بالعصر النبوي في أول الأمر ثم أنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ الإذن بالكتابة للحديث من عدة وجوه:

منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ما من أحد من أصحاب النبي ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ماكان من عبدالله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب[١٠].

ومنها حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد أحفظه فنهتني قريش وقالوا تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الرضا والغضب فأمسكت عن الكتابة

فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوما بأصبعه إلى فيه وقال اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق"(١١) .

وهذا صريح على إذن النبي ﷺ لمن شاء بالكتابة وأصرح منه قوله ﷺ آكتبوا لأبي فلان" وفي رواية "اكتبوا لأبي شاه"(١٢) .

فهذه الأحاديث تدل على إباحة الكتابة للحديث في عصر النبوة وقد حاول العلماء الجمع بين الأحاديث المتقدمة في النهي عن كتابة الحديث والإذن بها وردت في ذلك خمسة آراء أرجحها وأقواها أن النهي كان عاماً في أول السلام عن الكتابة للحديث مخافة اختلاط الحديث بالقرآن وخشية اشتغال المسلمين بالحديث عن القرآن وهم حين ذاك حديث عهد به فلما كثر عددهم وعرفوا القرآن وميزوا بينه وبين الحديث أذن لهم رسول الله ﷺ بكتابة الحديث ونسخ النهي عن كتابة الحديث(١٣) .

وحملوا حديث أبي سعيد على أنه كان متقدم في أول الهجرة وحين كان لا يؤمن من الانشغال بالحديث عن القرآن واحاديث الإباحة كانت متأخرة لأن إسلام أبي هريرة كان في زمن خيبر وحديث أبي شاه كان في أخريات حياة النبي ﷺ.

وكل هذا يقوي أن النهي عن الكتابة كان في أول الأمر ثم نسخ(١٤) والواقع يشهد لذلك كما في صحيفة علي ﷺ وصحيفة محمد بن عمر بن حزم عن أبيه في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم في العقول وكما في حديث كتاب الصدقة ونصاب الزكاة وقد كانت نسخة عند أبي بكر فكتب الى انس بن مالك في ذلك لما وجهه الى البحرين وصيغتها :

بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين ... الحديث .

وكما في الصحيفة الصادقة التي كتبها عبدالله بن عمرو بن العاص قال عبدالله بن عمرو حفظت عن النبي ﷺ ألف مثل وكان عبدالله يعتز بها يقول " ما يرغبني في الحياة إلا الصادقة" أخرجها الدارمي(١٦) .

وكما في صحيفة سعد بن عبادة أخرج أحمد(١٧) من طريق سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن عن اسماعيل بن عمرو بن قيس بن سعد بن عبادة عن أبيه أنهم وجدوا في كتب أبيه أو في كتاب سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد".

وكما في كتبه ﷺ الى أمرائه وعماله فيما يتعلق بتدبير شؤون الأقاليم الاسلامية وأحوالها وفي بيان أحكام الدين وهي كتب كثيرة تشتمل على مهمات أحكام الاسلام وعقائده وبيان أحكام الزكاة والديات والحدود.

ومنها كتاب الزكاة والديات الذي كتبه أبوبكر الصديق " أن رسول الله ﷺ كتب كتاب الصدقة[١٨] .... الخ.

ومنها كتابه لعمر بن حزام عامله ﷺ على اليمن وفيه أصول الاسلام وطرق الدعوة إليه والعبادات ونصبة الزكاة والجزية والديات(١٩) ومنها كتابه ﷺ الى وائل بن حجر لقومه في حضرموت فيه الأصول العامة للاسلام وأهم المحرمات"[٢٠].

ومنها عقوده ومعاهداته ﷺ التي أبرمها مع الكفار كصلح الحديبية وصلح تبوك وصحيفة المعاهدة التي أبرمها عند قدومه المدينة المنورة وكتبه ﷺ الى الملوك والعظماء والى أمراء العرب يدعوهم الى الاسلام كما هو مودوع في دواوين الحديث وكتب السيرة.

فهذا وغيره مما كتب في عهد النبي ﷺ كافٍ لإثبات أنه كتب شيء من السنة النبوية في عهده ﷺ.

وقد كان الصحابة يحفظون عن رسول ﷺ أقواله وأفعاله وتقديراته ووهبهم اله صبراً على طلب الحديث مع صفاء أذهانهم وقوة قرائحهم فتلقوا الحديث النبوي بغاية الاهتمام ونهاية الحرص لما للحديث النبوي من مكانة في التشريع لأنه المصدر الثاني بعد كتاب الله العزيز وقد كان رسول الله ﷺ يحثهم على حفظه واتقانه ويرغبهم في ذلك ويخوفهم من الزيادة والنقص في الحديث ويأمرهم بتبليغه.

أخرج أحمد عن عبدالله بن مسعود أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: " نضر الله أمرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه فربَّ مبلغ احفظ له من سامع"[٢١] الحديث مشهور وطرقه كثيرة بالفاظ متقاربة بلغ حدَّالتواتر بالمعنى.

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه " من تعمد عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار"[٢٢] الحديث متواتر قال السيوطي[٢٣] قال ابن الصلاح رواه اثنان وستون من الصحابة وقال غيره رواه أكثر من مائة نفس.

وقوله ﷺ :" إن دماءكم وأموالكم واعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب"[٢٤] فهذا كله دليل على ثبوت الاباحة بعد الحضر لكتابة الحديث ولكن ما كتب من السنة في عصر النبوة فإنما هو قليل جداً بالنسبة الى السنة المطهرة.

كتابة الحديث في عصر الصحابة :

كما وردت أحاديث في النهي عن كتابة الحديث والاذن بها كذلك وقف الصحابة مواقف متباينة من كتابة الحديث فمنهم من كره الكتابة ومنهم من أجازها ومنهم من روى عنه الأمران معا(٢٥) .

وقد وضح أنه كان سبب كراهية كتابة الحديث عندهم مخافة انشغال الناس به وانصرافهم عن القرآن الكريم أما حين يؤمن ذلك فانهم كانوا يجوزون الكتابة للحديث ويهتمون بذلك ويحرصون على الكتابة عند شدة الحاجة اليها ولذلك قد كتب بعض الصحابة رضي الله عنهم الأحاديث في الصحف في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته ، واليك بعضاً من ذلك :-

١- صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري(٢٦).

٢- صحيفة عبدالله بن أبي أوفى(٢٧).

٣- صحيفة أبي موسى الأشعري(٢٨).

٤- صحيفة جابر بن عبدالله(٢٩).

٥- كتاب أبي هريرة .

٦- كتاب أبي رافع مولى رسول الله ﷺ (٣٠).

٧- نسخة سمرة بن جندب جمع فيها أحاديث كثيرة(٣١) .

٨- الصحيفة الصادقة لعبدالله بن عمرو بن العاص(٣٢).

٩- صحيفة أبي سلمة نبيط بن شريط الأشجعي الكوفي(٣٣).

فهذه الصحف تثبت أن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يبيحون الكتابة وقد كتبوا الحديث لأنفسهم وكتب طلابهم بين أيديهم وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه(٣٤) ، وانما كانوا يمتنعون عنها عندما يخشون أن يشتغل المسلمون بكتابة الحديث وكتبه عن القرآن أو من مظاهات ذلك للقرآن أما عندما يؤمن ذلك فكانوا يكتبون بدون حرج .

كتابة الحديث في عصر التابعين

لقد تلقى التابعون علومهم على يدي الصحابة وخالطوهم وعرفوا كل شيء عنهم وحملوا الحديث النبوي عن طريقهم وعرفوا متى كره الصحابة الكرام رضي الله عنهم كتابة الحديث ومتى أباحوها فتأسوا بهم واتفقت آراءهم مع آراء الصحابة رضي الله عنهم .

فقد امتنع بعض كبار التابعين من الكتابة مثل عبيدة بن عمرو السلماني – ت ٧٢هـ وابراهيم بن يزيد التميمي ت ٢٩هـ وجابر بن زيد – ت ٩٣هـ – وابراهيم النخعي –ت ٩٦هـ – هو ابن زيد بن قيس وعامر الشعبي ت١٠٣ .

ولكن البعض الآخر منهم كان يكتب الحديث مثل سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعامر الشعبي فقد كان يكره الكتابة للحديث ويردد عبارته المشهورة " ماكتبت سوداء في بيضاء ولاسمعت من رجل حديثاً فأردت ان يعيده علي"[٣٥] ولكنه زالت عنه الكراهية ثم صار يحث على كتابة العلم وقد أثر عنه " الكتاب قيد العلم " وقوله اذا سمعتم مني شيئاً فاكتبوه ولو في حائط "

والضحاك بن مزاحم والحسن البصري وعطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر وقتادة السدوسي فهؤلاء كانوا يكتبون لأنفسهم ويأمرون تلاميذهم بالكتابة وبرز من جيل التابعين عدد من العلماء الذين وجدت لهم أجزاء وصحف احتفظوا بها وجعلوا يروونها منهم :

أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس الأسدي – ت١٢٦– كتب بعض حديث الصحابي جابر بن عبدالله وغيره[٣٦].

وأبو عدي عبدالله الزبير بن عدي الهمداني الكوفي –ت١٣١هـ –[٣٧].

وأبو العشراء الدارمي أسامة بن مالك[٣٨].

وزيد بن أبي أنيسة أبي أسامة الرهاوي – ت١٢٥–[٣٩].

وأيوب بن أبي تميمة السختياني – ت٢٣١ –[٤٠].

ويونس بن عبيد بن دينار العبدي – ت١٣٩ هـ –[٤١].

وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام – ت١٤٦هـ –[٤٢].

وحميد بن أبي حميد الطويل – ت١٤٣هـ –[٤٣].

وأبي عثمان عبيدالله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب المتوفي سنة ١٤٧هـ[٤٤].

وهذا يدل على أن الكتابة قد شاعت بين مختلف الطبقات ولم يعد أحد ينكرها في أواخر القرن الأول وأول القرن الثاني الهجري وقد كثرت الصحف والكتب آن ذاك حتى أن مجاهد[٤٤] بن جبر ليسمح لبعض طلابه أن يصعد الى غرفة فيخرج اليهم كتبه فينسخون منها .

وطلب هشام بن عبدالملك من عامله رجاء بن حيوة حديثاً فيقول رجاء بن حيوة قد كنت نسيته لولا أنه كان عندي مكتوباً(٤٥).

وقد كان عطاء بن أبي رباح يكتب لنفسه وأحياناً يأمر ابنه أن يكتب له وكان طلابه يكتبون بين يديه ويحض طلبة العلم على التعلم والكتابة(٤٦) .

فعن أبي حكيم الهمداني قال كنت عند عطاء بن أبي رباح ونحن غلمان فقال ياغلمان تعالوا اكتبوا فمن كان منكم لا يحسن كتبنا له ومن لم يكن معه قرطاس أعطيناه من عندنا(٤٧).

وهكذا نشطت الحركة العلمية في عصر التابعين وازدادت معها الكتابة والقراءة على العلماء وأصبح من ضروريات كل طالب الكتابة الى جانب الحفظ من دون تردد ويدل على ذلك جواب قتادة بن دعامة على من سأله عن الكتابة للحديث فقال ومايمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير بذلك بقوله " علمها عند ربي في كتاب لايضل ربي ولاينسى "(٤٨).

وذكر الحافظ الذهبي أنه كان للتابعي الجليل خالد بن معدان مصحف به أزرار وعرى جمع علمه فيه(٤٩) .

فكل هذا يدل على أنه قل التحرج عن كتابة السنة وصار الأمر الى اباحة الكتابة والحث على ذلك من دون حرج وقد وقع الاجماع بعد ذلك على جواز كتابة الحديث فكان حجة لامناص من التسليم بها قال ابن الصلاح ثم زال الخلاف واجمع المسلمون على تسويغ الكتابة واباحتها ولولا تدوين الحديث في الكتب لدرس في الأعصر الأخيرة .

أول محاولة في جمع السنة النبوية وعوامل تدوينها :

قد كان أكبر محاولة في تدوين السنة النبوية على رأس القرن الأول وأول القرن الثاني على يد الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه فانه كتب الى علماء المدن الاسلامية انظروا الى حديث رسول الله ﷺ فأجمعوه :

أخرج الدارمي(٥٠) من طريق يحي بن سعيد عن عبدالله بن دينار قال :

كتب عمر بن عبدالعزيز الى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن اكتب اليّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمر فاني قد خشيت دروس العلم وذهابه .

وفي رواية أخرى عن عبدالله بن دينار قال كتب عمر بن عبدالعزيز الى أهل المدينة أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه فاني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله " .

وأخرجه البخاري[٥١] معلقاً ثم ساق سنده الى عمر بن عبدالعزيز ولفظه وكتب عمر بن عبدالعزيز الى أبي بكر[٥٢] بن حزم انظر ماكان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولايقبل الا حديث النبي ﷺ ولفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لايعلم فان العلم لايهلك حتى يكون سراً " ثم أسند الأثر[٥٣].

وأمر الامام الجليل عمر بن عبدالعزيز الامام الحافظ محمد بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ بجمع السنن فاستجاب لذلك وكان محمد بن شهاب شغوفاً لجمع الحديث والسيرة فجمع حديث المدينة وقدمه الى عمر بن عبدالعزيز الذي بعث الى كل أرض دفتراً من دفاتره .

وكانت هذه المحاولة هي الأولى لجمع الحديث وتدوينه بشمول واستقصاء وبذلك مهد الطريق لمن أعقبه من العلماء المصنفين في القرن الثاني الهجري حيث نشطت حركة تدوين الحديث ودأب العلماء على ذلك .

ومن العوامل الملحة التي أدت الى تأكد تدوين الحديث وجمعه فشو الوضع للحديث فقد كان لذلك أثر عظيم لتدوين السنة وحفظاً لها ومنعاً لعبث المتلاعبين في السنة النبوية .

كيفية تدوين السنة النبوية :

فقد أثار ذلك النشاط العلمي وكتابة الحديث وتدوينه على أبناء الصنف الأول من القرن الثاني الهجري وظهرت تلك المصنفات والكتب في أوقات متقاربة في مناطق مختلفة فبعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة في الصحف والأجزاء أصبحوا يرتبون الأحاديث على الأبواب في المصنفات والجوامع والسنن ونحو ذلك .

فكان أول من اشتهر بالتصنيف بمكة أبو محمد عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج المتوفى سنة ١٥٠هـ ومحمد بن اسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ بالمدينة وباليمن معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣هـ وسعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ بالمدينة وأبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٦هـ بالشام ومحمد بن عبدالرحمن من أبي ذئب المتوفى سنة ١٥٨هـ بالمدينة والربيع بن صح المتوفى سنة

١٦٠هـ بالمدينة. وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ بالبصرة . وأبو عبدالله سفيان بن سعيد الثواري المتوفي سنة ١٦١هـ بالكوفة . والليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥هـ بمصر . والامام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ بالمدينة المنورة صنف الموطأ المشهور . وعبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ بخراسان وهشيم بن بشير المتوفى سنة ١٨٨هـ بواسط . وجرير بن عبدالحميد الضبي المتوفى سنة ١٨٨هـ بالري . وعبدالله بن وهب المتوفى سنة ١٧٩هـ . وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ بمكة . ووكيع بن الجراح الرواسي المتوفى سنة ١٧٩هـ بالكوفة . وعبدالرزاق الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ باليمن .

ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم ومن بعدهم على منوالهم وقد كانت طريقتهم في جمع الأحاديث المتناسبة في الأبواب وضمها الى بعضها في أبواب في مصنف واحد.

وقد كان معظم هذه المصنفات يضم الى الحديث الشريف فتاوي الصحابة والتابعين كما يتجلى لنا هذا في موطأ مالك بن أنس ومصنف عبدالرزاق .وقد كانت هذه المصنفات تحمل عناوين مثل مصنف وسنن وموطأ وجامع .

من أنواع المصنفات في الحديث النبوي :

١- الموطأ والمصنفات والجوامع والسنن والمساند والمعاجم والأجزاء والمشيخات والأطراف .

أما الموطآت فمنها موطأ الامام مالك بن أنس المتوفى سنة مائة وتسعة وسبعون ١٧٩هـ وطريقه فيها مرتبة على الأبواب جمع بين الحديث المرفوع وأقوال الصحابة وفتاوي التابعين وما أراده من الفقه .

٢- المصنفات كمصنف عبدالرزاق بن همام بن نافع أبو بكر الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ ومصنف أبي بكر أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥هـ وطريقه المصنفات مرتبة على الأبواب ولكنها تشتمل على الحديث الموقوف والمقطوع بالاضافة الى الحديث المرفوع .

٣- الجوامع وهي مرتبة على الأبواب : وسميت بذلك لأنها يوجد فيها أحاديث في جميع الموضوعات في الدين وأبوبه فهي تشمل العقائد والعبادات والمعاملات والأحكام والسير والمناقب والآداب والرقائق والتفسير والفتن وأشراط الساعة وأخبار يوم القيامة وغير ذلك . كجامع البخاري وجامع الترمذي وجامع مسلم .

٤- كتب السنن هي مرتبة على الأبواب أيضاً الا أنها تقتصر على جمع أحاديث الأحكام وأبواب الفقه غالباً وهي كثيرة كسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن ابن ماجة.

٥- المساند هي كل كتاب جمع فيه مصنفه مرويات كل صحابي على حدة من غير مراعاة الى ترتيب الحديث على الأبواب وهي كثيرة من اعظمها مسند الامام أحمد رحمه الله تعالى .

٦- المعاجم هي كل كتاب جمع فيه مؤلفه الحديث على ترتيب الشيوخ على ترتيب حروف الهجاء .

وأشهر المعاجم الثلاثة للطبراني أبي القاسم سليمان بن محمد المتوفى سنة ٣٦٠هـ .

٧- الأجزاء هي مؤلفات صغيرة يجمع فيه مؤلفها المرويات عن رجل واحد سواء كان من طبقات الصحابة أو ممن بعدهم كجزء حديث أبي بكر وجزء حديث مالك .

كما تكون الأجزاء في جمع سند حديث الحديث واحد أو جمع أدلة مسألة واحد مثل جزء القراءة خلف الامام للبخاري .

وهكذا استمر نشاط العلماء في تدوين الحديث ثم أبتدأوا بلون جديد في التصنيف وهو فكرة الاقتصار على الحديث المرفوع الى رسول الله ﷺ وحذف ما عداه من أقوال الصحابة والتابعين من كتب الحديث ، وقد رتبوا الاحاديث على طريقة المساند بأن جمعوا أحاديث كل صحابي على حدة وان تباينت المواضيع التي تناولتها تلك المساند.

ومن عرف من اوائل المصنفين للمسانيد:

- أبو داود الطيالسي المتوفى سنة ٢٠٤هـ.
- وأبويعلى الموصلي المتوفى سنة ٢٠٧هـ.
- ومحمد بن يوسف الفريابي المتوفى سنة ٢١٢هـ.
- واسد بن موسى الأموي المتوفى سنة ٢١٢هـ.
- وعبيدالله بن موسى العبسي المتوفى سنة ٢١٣هـ.
- وعبدالله بن الزبير الحميدي المتوفى سنة ٢١٩هـ.
- وأحمد بن منيع البغوي المتوفى سنة ٢٢٤هـ.
- ونعيم بن حماد الخزاعي المتوفى سنة ٢٢٨هـ.
- ومسدد بن مسرهد البصري المتوفى سنة ٢٢٨هـ .

- وأبو الحسن علي بن الجعد الجوهري المتوفى سنة ٢٣٠هـ .
- ويحيى بن المعين المتوفى سنة ٢٣٣هـ .
- وأبو خيثمة زهير بن حرب المتوفى سنة ٢٣٤هـ .
- وأبو بكر عبدالله بن ابراهيم بن عثمان بن أبي شيبة المتوفى ٢٣٥هـ .
- واسحاق بن راهوية المتوفى سنة ٢٣٨هـ .
- وأحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤٠هـ.
- وبقية بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦هـ .

وقد بلغ أكرم ضياء العمري(٥٤) بعد من ألف مسنداً ٣٥ مصنفاً وذكر الموجود منها كاملاً كان أو بعضاً مطبوعاً أو مخطوطاً(٥٤).

فجميع من تقدم من أهل المساند جمعوا الحديث ودونوا بأسانيده وهم لم يقتصروا على الحديث الصحيح بل احتوت مسانيدهم على الحديث المرفوع الى رسول الله ﷺ وان كان ضعيفاً وتجنبوا أقوال الصحابة وفتاوي التابعين .

فالمساند امتازت على غيرها مما صنف قبلها باقتصارها على الحديث المرفوع فقط ولكنها لم تقتصر على الصحيح من الحديث بل جمعت بينه وبين الحسن والضعيف لأن همهم كان منصباً على جمع مرويات كل صحابي على حدة ويضاف الى ذلك أن طريقة المساند صعبة المأخذ في التنقيب على الحديث والعثور عليه لأنها لم ترتب على الأبواب وقد كان هذا أحد الأمور التي حدت بالامام البخاري الى تأليف الجامع الصحيح كما يأتي ان شاء الله تعالى .

فنتج عن ذلك لون جديد في التأليف فرأى جماعة من أئمة الحديث أن يصنفوا في الحديث الصحيح المرفوع المجرد عن غيره مرتباً على الأبواب لتكون مصنفاتهم سهلة التناول وعظيمة الفائدة يركن اليها ويعتمد عليها فكان أول من طرق هذا الباب الامام الحافظ أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري ألف الجامع الصحيح المسند وتبعه في ذلك الامام مسلم بن الحجاج رحمهما الله رحمة واسعة .

المبحث الأول في صحيح البخاري

ترجمة الامام البخاري رحمه الله

نسبه ومولده ومنشئه

هو أبو عبدالله محمد[٥٥] بن اسماعيل[٥٥] بن ابراهيم[٥٦] بن المغيرة[٥٧] ابن بردزبة[٥٨] الجعفي مولاهم[٥٩].

ولد رحمه الله تعالى يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ببخارى[٦٠] ومات أبوه اسماعيل وهو صغير فنشأ محمد في حجر أمه وقد كان خلف أبوه مالاً واسعاً لايعلم فيه حرام ولاشبهة وقد كان له أخ يسمى أحمد أكبر منه مات وصار مال ابيهما للامام البخاري .

نشأة البخاري العلمية :

لقد تلقى محمد بن اسماعيل البخاري العلم مبكراً في حداثة سنه فكان سماعه الحديث سنة خمس ومائتين وهو ابن احدى عشرة سنة وأقل .

ذكر الحافظ بن حجر عن الفربري أنه سمع محمد بن أبي حاتم وراق البخاري يقول سمعت البخاري يقول الهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب قلت وكم أتى عليك اذ ذاك فقال عشر سنين وأقل ثم خرجت من الكتاب فجعلت أختلف الى الداخل وغيره .

وقال البخاري لما طعنت في ست عشره حفظت كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء - يعني أصحاب الرأي - وسمع مرويات أهل بلده من محمد بن سلام والمسندي ومحمد بن يوسف اليكندي .

ثم رحل مع أمه وأخيه أحمد وكان أسن منه الى الحج سنة عشر ومائتين وكانت أول رحلة له فحجوا ورجع أخوه أحمد الى بخارى ومات عقب ذلك وبقى البخاري بمكة مجاوراً يطلب العلم فيها والحجار ستة أعوام ولو رحل أول الطلب لأدرك ما أدركته أقرانه من طبقة عالية لم يدركها هو وان كان أدرك ماقاربها كيزيد بن هارون وأبي داود الطيالسي .

وقد أدرك عبدالرزاق الصنعاني وأراد أن يرحل اليه وكان يمكنه ذلك فقيل له أنه قد مات فتأخر عن التوجه الى اليمن ثم تبين أن عبدالرزاق كان حياً فصار يروي عنه بواسطه .

قال البخاري لما طعنت في ثمانية عشرة صنفت كتاب قضايا الصحابة والتابعين ثم صنفت التاريخ الكبير في المدينة عند قبر النبي ﷺ وكنت أكتبه في الليالي المقمرة وأقل اسم في التاريخ الا وله عندي قصة الا أني كرهت أن يطول الكتاب قال سهل بن السري قال البخاري دخلت الشام ومصر والجزيرة مرتين والبصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحص كم دخلت الى الكوفة وبغداد مع المحدثين(٦١).

شيوخ البخاري :

ذكر الحافظ بن حجر عن محمد بن أبي حاتم عن البخاري أنه قال كتبت عن ألف وثمانين نفساً ليس فيهم الا صاحب حديث .

وقال أيضاً لم أكتب الا عمن قال الايمان قول وعمل .

ذكر عدد من مشايخ البخاري :

قسم الحافظ بن حجر من أخذ عنهم البخاري الحديث الى خمس طبقات(٦٢):

١ - الطبقة الأولى : من حدثه عن التابعين مثل محمد بن عبدالله الأنصاري حدثه عن حميد ومثل مكي ابراهيم حدثه عن يزيد بن أبي عبدالله ومثل أبي عاصم النبيل حدثه عن يزيد ابن أبي عبدالله أيضاً ومثل عبدالله بن موسى حدثه عن اسماعيل بن أبي خالد .

ومثل أبي نعيم حدثه عن الأعمش

ومثل خلاد بن يحيى حدثه عن عيسى بن طهمان .

ومثل عياش وعاصم ابن خالد حدثاه عن حريز بن عثمان وشيوخ هؤلاء كلهم تابعيون .

٢- الطبقة الثانية : من كان في عصر هؤلاء لكن لم يسمع من ثقات التابعين كآدم بن أبي أويس وأبي مسهر عبدالأعلى بن مسهر وسعيد بن أبي مريم وأيوب بن سليمان بن بلال وأمثالهم .

٣- الطبقة الثالثة : هي الوسطى من مشايخه وهم من لم يلق التابعين بل أخذ عن كبار تبع الاتباع كسلمان بن حرب وقتيبة بن سعيد ونعيم بن حماد وعلى بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وأبو بكر بن أبي شيبة الحافظ عبدالله بن محمد ابن أبي شيبه ابراهيم بن عثمان العبسي مولاهم .

وعثمان بن أبي شيبة أبو الحسن بن محمد بن ابراهيم عثمان الكوفي وأمثال هؤلاء.

وهذه الطبقة قد شارك مسلم بن الحجاج في الأخذ عنهم.

٤- الطبقة الرابعة : رفقاؤه في الطلب ومن سمع قبله قليلاً في الطلب كمحمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي ومحمد بن عبدالرحيم صاعقه سمي صاعقه لحفظه وكان بزازاً .

وعبد بن حميد وأحمد بن النضر وجماعة من نظرائهم وانما يخرج عن هؤلاء مافاته عن مشايخه أو مالم يجده عند غيرهم .

٥- الطبقة الخامسة : قوم في عداد طبقته في السن والاسناد وسمع منهم للفائدة كعبدالله بن حماد الآملي وعبدالله بن أبي العاص الخوارزمي وحسين بن محمد القباني وغيرهم عمل في الرواية عنهم لما اشتهر عن عثمان ابن أبي شيبة ووكيع لايكون الرجل عالما حتى يحدث عمن فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه.

وعن البخاري أنه قال لايكون الرجل كاملاً حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه(٦٣).

فهذا التقسيم يبين فيه الحافظ عن جملة من مشايخ البخاري وكالمثال فقط لأنهم عدد غفير .

ذكر الذهبي أن(٦٤) البخاري سمع من أهل بلده من محمد بن سلام والمسندي ومحمد بن يوسف البيكندي وسمع ببلخ من مكي بن ابراهيم وببغداد من عفان وبمكة من المقرئ والبصرة من أبي عاصم والأنصاري وبالكوفة من عبيدالله بن موسى وبالشام من أبي المغيرة والفريابي وبعسقلان من آدم وبحمص من أبي اليمان وبدمشق من أبي مسهر .

وذكر الخطيب البغدادي(٦٥) من مشايخه أبا غسان النهدي وعارم بن الفضل وأبا معمر المنقري وعبدالله بن مسلمة القعنبي وابا بكر الحميدي وسعيد بن أبي مريم المصري ويحيى بن بكير المخزومي وعبدالله بن يوسف التنيسي وعبدالعزيز بن عبدالله الأويسي واسماعيل بن أبي أويس المديني وعبدالقدوس بن الحجاج والحجاج بن المنهال .

هذا وقد روى البخاري رحمه الله عن خلق كثير كما تقدم .

سعة علم البخاري وقوة حفظه :

قد كان البخاري رحمه الله منحه الله قوة حافظة منذ نشأ وهو غلام ذكر الحافظ بن حجر عن حاشد بن اسماعيل قال كان البخاري يختلف الى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فلمناه بعد ستة عشر يوماً فقال قد أكثرتم عليّ فأعرضوا على ماكتبتم فأخرجناه فزاد على خمسة عشر ألف حديث فقرأها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه .

وقال محمد بن أبي حاتم عن البخاري كنت في مجلس الفريابي فقال حدثنا سفيان عن أبي عروة عن أبي الخطاب عن أبي حمزة فلم يعرف أحد في المجلس من فوق سفيان فقلت لهم : أبو عروة هو معمر بن راشد وأبو الخطاب هو قتادة بن دعامة وأبو حمزة هو أنس بن مالك .

وقال البخاري فيما كان يقرأ للناس سفيان عن أبي الزبير عن ابراهيم فقلت ان أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم فانتهرني فقلت له ارجع الى الأصل ان كان عندك فدخل فنظر فيه ثم رجع فقال كيف ياغلام فقلت هو الزبير وهو ابن عدي عن ابراهيم فأخذ القلم وأصلح كتابه وقال لي صدقت وكان البخاري ابن عشر سنة آنذك .

وقال البخاري أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح وقال ابن كثير قال البخاري فكرت البارحة فاذا أنا قد كتبت لي مصنفات نحواً من مائتي ألف حديث مسندة وكان يحفظها كلها .

ودخل سمرقند فاجتمع بأربعمائة من علماء الحديث بها فركبوا أسانيد وأدخلوا اسناد الشام في اسناد العراق وخلطوا الرجال وجعلوا متون الأحاديث على غير أسانيدها ثم قرؤها على البخاري فرد كل حديث الى اسناده وقوم تلك الأحاديث والأسانيد كلها وما تعنتوا عليه فيه ولم يقدروا أن يعلفوا عليه سقطة في اسناد ولا متن(٦٦) وقد ذكروا أنه كان ينظر في الكتاب مرة واحدة فيحفظه من مرة واحدة .

وأخرج الحافظ بن حجر بسنده الى أبي أحمد بن عدي الحافظ أنه قال سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون ان محمد بن اسماعيل البخاري قدم فسمع به أصحاب الحديث فأجمعوا وأرادوا امتحان حفظه فعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد أخر واسناد هذا المتن لمتن آخر ودفعوها الى عشرة أنفس كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم اذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري وأخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من

العشرة فيسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال : لاأعرفه فما زال يلقي عليه واحد بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول لاأعرفه وكان العلماء ممن حضر المجلس يلفت بعضهم الى بعض ويقولون فهم الرجل ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ . ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال : لاأعرفه فسأله عن آخر فقال لاأعرفه فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لاأعرفه ثم انتدب الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من تلقاء تلك الأحاديث المقلوبة والبخاري لايزيدهم على لاأعرفه فلما علم أنهم قد فرغوا التفت الى الأول فقال أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فردّ كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه وفعل بالآخرين مثل ذلك فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل(٦٧).

قال الحافظ بن حجر " قلت " هنا يخضع للبخاري فما العجب من رده الخطأ والى الصواب فانه كان حافظاً بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ماألقوه عليه مرة واحدة وذكر الذهبي عن البخاري قوله أحفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ مائتي ألف غير صحيح .

وقال ابن خزيمة ماتحتى أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري(٦٨) .

سيرة وشمائل الامام البخاري وزهده وفضله :

اتفق العلماء على امامة الامام البخاري وحفظه واتقانه وعلمه وفقهه وورعه وزهده وعبادته وعدالته وجده واجتهاده .

فقد كان رحمه الله تعالى في غاية من الحياء والشجاعة والسخاء والورع والزهد في الدار الفانية والرغبة في الدار الآخرة طيب الطعمة خلف له أبوه مالاً حلالاً كثيراً.

ذكر الحافظ بن حجر عن وراقة أنه قال سمعت محمد بن خراش يقول سمعت أحيد بن حفص يقول دخلت على اسماعيل والد أبي عبدالله عند موته فقال لاأعلم من مالي درهماً من حرام ولادرهماً من شبهة.

وحكى أنه ورث عن أبيه مالاً جليلاً وكان يعطيه مضاربة وقال البخاري ماتوليت شراء شيء قط ولابيعه كنت آمر انساناً فيشتري لي قيل له ولم قال لما في ذلك من الزيادة والنقصان والتخليط وذكر غنجار في تاريخه عن أبي سعيد بن منير قال كان حمل الى محمد بن اسماعيل بصناعة أنفذها اليه أبو حفص فاجتمع بعض التجار اليه بالعشية وطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم فقال انصرفوا الليلة فجاء من الغد تجار

آخرون فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقال اني نويت البارحة أن أدفعها الى الأولين فدفعها اليهم وقال لاأحب أن أنقض نيتي .

وذكر وراق البخاري أنه سمع البخاري يقول خرجت الى آدم بن أبي اياس فتأخرت نفقتي حتى جعلت آكل حشيش الأرض فلما كان في اليوم الثالث أتاني رجل لاأعرفه فأعطاني صرة فيها دنانير قال وسمعته يقول كنت استغل في كل شهر خمسمائة درهم أنفقها في الطلب وما عند الله خير وأبقى .

ورع البخاري وتقواه وقد كان مستجاب الدعوة :

لقد كان البخاري على جانب عظيم من الورع والمتابعة والانصاف حكى الحافظ بن حجر عن عبدالله بن محمد الصيارفي أنه قال كنت عند محمد بن اسماعيل في منزله فجاءته جاريته وأرادت دخول المنزل فعثرت على المحبرة بين يديه فقال لها كيف تمشين قالت واذا لم يكن طريق كيف أمشي فبسط يديه وقال اذهبي فقد أعتقتك :

قيل له ياأبا عبدالله أغضبتك فقال فقد أرضيت نفسي بما فعلت وقال وراق البخاري رأيت البخاري استلقى ونحن بفربر وكان قد أتعب نفسه في تصنيف كتاب التفسير في ذلك اليوم فقلت له اني سمعتك تقول ماأتيت شيئاً بغير علم فما الفائدة في الاستلقاء قال أتعبت نفسي اليوم وهذا ثغر خشيت أن يحدث حدث من أمر العدوى فأحببت أن استريح وآخذ أهبة فان عافصنا العدو كان بنا حراك .

قال وكان يركب الى الرمي كثيراً فما رأيت أنه أخطأ سهمه الهدف الا مرتين بل كان يصيب الهدف ولايسبق .

وقال وراقه ركبنا يوماً للرمي فجعلنا نرمي فأصاب سهم أبي عبدالله وتد القنطرة التي على النهر فانشق الوتد فلما رأى ذلك حزن وترك الرمي وتنفس الصعداء وطلب من صاحب الوتد الاذن في اصلاحه أو أخذ ثمنه فجعله صاحب القنطرة في حل مما كان فتهلل وجه البخاري وأظهر السرور وقرأ على الغرباء في ذلك اليوم خمسمائة حديث وتصدق بثلاثمائة درهم .

وطلب البخاري من مستملية أبي معشر الضرير الحل فقال اجعلني ياأبا معشر في حل فقال من أي شيء قال رويت يوماً حديثاً فنظرت اليك وقد أعجبت به وأنت تحرك رأسك ويديك فتبسمت من ذلك فقال أنت في حل ياأباعبدالله يرحمك الله .

وقال البخاري دعوت ربي مرتين فاستجاب لـي (يعنـي بالحـال) فلـن أحـب أن أدعو فلعله ينقص حسناتي .

وقد كان البخاري ذهب بصره وهو صغير فكانت أمه تكـثر الدعـاء للـه والتضـرع اليه بأن يرد الله له بصره فرأت ابراهيم الخليل في المنام فقال ياهذه ان الله قد رد على ابنك بصره بكثرة دعائك .

وقيل للبخاري ان بعض الناس ينقمون عليك التاريخ يقولون فيه اغتياب الناس فقال انما روينا ذلك رواية ولم نقله من عندنا وقد قال النبي ﷺ " بئس أخو العشيرة" .

قال ماأغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة حرام .

وقد كان للبخاري توق وتحري في الجرح والتعديل فأكثر مايقول سكتوا عنه فيـه نظر تركوه فلان رماه فلان يعني بالكذب .

وقال البخاري اني لأرجو أن القى الله ولايحاسـبني أنـي اغتبـت أحـداً وقـد كـان البخاري رحمه الله يفعـل الخـيرات روى عنـه وراقـه أنـه بنـى رباطـاً بفربـر ممـا يلـي البخاري فاجتمع بشرٌ كثير يعينونه على ذلك وكان ذبح بقرة فلما أدركت القدور دعا الناس الى الطعام فكان عنده خبز فألف الطعام بين أيديهم فـأكلوا جميعـاً وبقـى فضلـة من الطعام .

وكان قليل الأكل كثير الاحسان للطلبة له كرم مفرط .

عبادة البخاري :

لقد كان البخاري كثير التلاوة لكتاب الله يكثر من الصـلاة متابعـاً لسـنة الرسـول ﷺ ذكر الخطيب البغدادي(٦٩) عن محمد بن أبي حاتم الوراق قال دعى محمـد بـن اسماعيل الى سفيان بعض أصحابه فلما حضرت الصـلاة صلـى الظهـر بـالقوم ثـم قـام للتطوع فأطال القيام فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه فقال لبعض من معه هل ترى تحت قميصي شيئاً فاذا زنبور قد أبّره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعاً وقد تورم من ذلك جسده .. فقال له بعضهم كيف لم تخرج من الصلاة في أول ما أبّرك فقال كنت في سورة فأحببت أن أتمها .

وقد كان رحمه الله يصلي في كل ليلـة ثـلاث عشـرة ركعـة ويوتـر منهـا بواحـدة وكان البخاري رحمه الله تعالى اذا كان رمضان يجتمع اليه أصحابه فيصلي بهم ويقرأ في كل ركعة عشرين آية وكذلك حتى يختم القرآن .

وكان يقرأ في السحر مابين نصف القرآن الى الثلث من القرآن فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال من رمضان .

وكان يختم بالنهار في كل يوم ختمه ويكون ختمه عند الافطار كل يوم ويقول عند كل ختمه دعوة مستجابة .

عفة البخاري واكرامه للعلم :

قال ابن كثير(٧٠) رحمه الله تعالى كان البخاري له جدة ومال ينفق منه سراً وجهراً وكان يكثر الصدقة بالليل والنهار وكان مستجاب الدعوة مسدد الرمية شريف النفس.

بعث إليه بعض السلاطين ليأتيه حتى يسمع أولاده عليه فأرسل إليه في بيته العلم والحلم يؤتى أي اذا كنتم تريدون ذلك فهلموا إليَّ وابى أن يذهب إليهم وكان ذلك السلطان خالد بن أحمد بن يحيى الذهلي نائب الظاهرية ببخارى فبقي في نفس الأمير من ذلك وتسبب بالإخراج البخاري من بلده كما سيأتي.

وذكر الحافظ بن حجر(٧١) عن بكر بن منير قال بعث خالد بن أحمد الذهلي والى بخاري الى محمد بن اسماعيل أن احمل إليّ كتاب الجامع والتاريخ لأسمع منك فقال محمد بن اسماعيل إني لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب السلاطين فإن كانت له حاجة الى شيء منه فليحضر في مسجدي أو في داري فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فأمنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة إني لا أكتم العلم قال فذكان سبب الوحشة بينهما.

عقيدة البخاري رحمه الله تعالى وفقه:

البخاري رحمه الله مأخذه من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وقد برهن على ذلك في الجامع الصحيح(٧٢) حيث صدره بكتاب الايمان وساق شعب الايمان مستمداً ذلك من الكتاب العزيز والسنة النبوية .

ابتدأ كتاب الايمان بقوله باب الايمان وقول النبي ﷺ(٧٣) " بني الاسلام على خمس وهو قول وفعل ويزيد وينقص ثم ساق الأدلة على ذلك من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ واستأنس بأقوال السلف الصالح .

وصنف كتاب أفعال العباد وقال القرآن كلام الله غير مخلوق ومن زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كاذب فاني لم أقله .

وقال البخاري القرآن كلام غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة ثم أخرج حديث حذيفة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ " ان الله يصنع كل صانع وصنعته " .

وقال سمعت عبدالله بن سعيد يعني ابن قدامة السرخسي يقول مازلت أسمع أصحابنا يقولون ان أفعال العباد مخلوقة .

وقال البخاري حركات العباد وأصواتهم وأكسابهم وكتابتهم مخلوقة فأما القرآن المبين المثبت في المصاحف الموعي في الصدور فهو كلام الله غير مخلوق بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم .

وقال اسحاق ابن راهويه أما الأوعية فمن يشك أنها مخلوقة فعلم مما تقدم أن البخاري لم يثبت عنه أنه قال لفظى القرآن مخلوق وأنه قد تبرأ من ذلك وقال من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كاذب فاني لم أقله .

وقد كان البخاري فقيه كبير ينبئ عن ذلك كتابه الصحيح حيث ملأه بالمسائل الفقهية والنكات الحكمية والتفسيرات القرآنية واللغات العربية فكتابه الصحيح شاهد بذلك ولذلك اشتهر عند العلماء أن فقه البخاري في تراجم الصحيح فهو يضع الترجمة ثم يدلل عليها وقد اعترف له أهل عصره بالتقدم بالحديث وعلومه والفقه واللغة وأقبلوا عليه يأخذون عنه .

اقبال العلماء على الأخذ من الامام البخاري :

لقد اعترف أهل عصره له بالتقدم بالعلم والفضل وأخذوا عنه ولازموا حلقاته وآثروه على غيره .

فحين قدم نيسابور استقبلوه من مرحلتين من البدو وفرغوا حلقات الدرس لذلك أخذ عنه شيخه محمد بن يحيى الذهلي واعترف له بالفضل وأذن له بعقد حلقات التدريس وحث طلبة العلم على الحضور عند البخاري .

ذكر الحافظ بن حجر عن الحاكم أبي عبدالله في تاريخه أنه لما قدم البخاري نيسابور سنة خمسين ومائتين فأقام بها مدة يحدث على الدوام قال فسمعت محمد بن حامد البزار يقول سمعت الحسن بن محمد بن جابر يقول سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول اذهبوا الى هذا الرجل الصالح العالم فاسمعوا منه قال فذهب الناس اليه وأقبلوا على السماع منه حتى ظهر الخلل في مجلس محمد بن يحيى فتكلم فيه بعد ذلك .

وقال حاتم بن أحمد بن محمود سمعت مسلم بن الحجاج يقول لما قدم محمد بن اسماعيل نيسابور مارأيت والياً ولا عالماً فعل به أهل نيسابور مافعلوا به استقبلوه من مرحلتين من البلد أو ثلاث .

وقال محمد بن يحيى الذهلي في مجلسه من أراد أن يستقبل محمد بن اسماعيل غداً فليستقبله فاستقبله محمد بن يحيى وعامة علماء نيسابور فدخل البلد فنزل دار البخاريين فقال لنا محمد بن يحيى لاتسألوا عن شيء من الكلام فانه ان أجاب بخلاف مانحن عليه وقع بيننا وبينه ... الخ ، فازدحم الناس على محمد بن اسماعيل حتى امتلأت الدار والسطوح .

محنة البخاري مع منافسيه وصبره:

وقال ابو احمد بن عدي ذكر لي جماعة من المشايخ أن محمد بن اسماعيل لما ورد نيسابور زاجتمع عليه الناس عنده حسده بعض شيوخ الوقت فقال لإصحاب الحديث إن محمد بن اسماعيل يقول : لفظي بالقرآن مخلوق فلا حضر المجلس قام إليه رجل فقال ياأبا عبدالله ماتقول في اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق فأغرض عنه البخاري ولم يجبه ثلاثاً فألح عليه فقال البخاري : القرآن كلام الله غير مخلوق وافعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة.

ثم ذكر الحافظ عن ابي الحامد الشرقي أنه سمع محمد بن يحيى الذهلي يقول كلام الله غير مخلوق ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يُجالس ولا يُكلم ومن ذهب بعد هذا الى محمد بن اسماعيل فأتهموه فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه.

وقال الحاكم ولما وقع الخلاف بين البخاري وبين الذهلي في مسألة اللفظ انقطع الناس عن البخاري إلا مسلم بن الحجاج واحمد بن سلمة.

قال الذهلي ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا فأخذ مسلم رداءه فوق عمامته وقام على رؤوس الناس فبعث الى الذهلي جميع ما كان كتبه عنه على ظهر جمال.

وكما ان مسلم رحمه أخذ عن محمد بن يحيى هذا القدر الكبير فانه لازم البخاري وأخذ عنه وحذا حذوه وتفقه عليه ولكنه أنصف فلم يخرج عنهما في كتابه الصحيح.

وذكر الحاكم أيضاً عن الحافظ أبي عبدالله بن الأخرم قال لما قام مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة من مجلس محمد بن يحيى بسبب البخاري قال الذهلي لا يساكنني هذا الرجل في البلد.

وقال الحاكم أيضاً سمعت محمد بن صالح بن هانيء يقول سمعت أحمد بن سلمة النيسابوري يقول دخلت على البخاري فقلت ياأبا عبدالله إن هذا الرجل مقبول بخراسان خصوصاً في هذه المدينة وقد لجَّ في هذا الأمر حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه فما ترى ؟

قال فقبض البخاري على لحيته ثم قال : وأفوض أمري الى الله إن الله بصير بالعباد اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً ولا طلب رياسة وانما أبت علي نفسي الرجوع الى الوطن لغلبة المخالفين وقد قصد في هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير. ثم قال لي : يا أبا أحمد إني خارج غداً لتخلصوا من حديثه لأجلي.

قال أحمد بن منصور الشيرازي لما رجع أبو عبدالله الى بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق مذكور ونثر عليه الدراهم والدنانير فبقي مدة ثم وقع بينه وبين امير بخارى خالد بن أحمد الذهلي ما تقدم ذكره أنه أراد الأمير أن يحضر البخاري منزله فيقرأ على أولاده الجامع والتاريخ فأمتنع البخاري وقال لا يسعني أن أخص بالسماع قوماً دون آخرين. فاستعان الأمير خالد بحريث بن أبي الورقاء وغيره من أهل بخارى حتى تكلموا في مذهب البخاري فنفاه عن البلد فدعا عليهم البخاري فقال اللهم أرهم مافصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهليهم فأجاب الله له دعوته.

أما خالد فلم يأتي عليه إلا أقل من شهر حتى ورد أمر الظاهرية بأن ينادي عليه فنودي عليه بالعزل ثم صار أمره الى الذل والحبس حتى مات وأما حريث بن أبي الورقاء فإنه ابتلى في أهله .

ولم يبق أحد ساعد على أخراج البخاري من بلده وتسبب لمنعه من الاملاء وإلقاء الدروس بالجامع على أهل بلده إلا ابتلى بلاءً شديداً بسبب دعوة البخاري عليهم.

وقد كان مجاب الدعوة رحمه الله حلال مطعمه عارفاً رباني عظيم التقوى والزهد والورع يحب الخير.

الهوامش

١- جاء الاستفتاح بنحو ماذكر في حديث مرفوع عن ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه أبو داود ج٢ ص ٤٨٩ والترمذي ج٤ ص٢٣٨ وحسنه .

٢- اللخاف الحجارة العريضة الرقيقة .

٣- انظر فتح الباري ج١٠ ص٩٧ ، وصحيح البخاري مع الفتح ج٢ ص٣٣٩ وكتاب فضائل القرآن لابن كثير ص٣٣ في الجزء الأخير من تفسيره والسير له أيضاً ج٤ ص٦٨٢ .

٤- انظر فتح الباري ج١٠ص٣٩٧ وكتاب فضائل القرآن لابن كثير ص٣٣ والسيرة النبوية له ج٤ ص٦٨٢ وزاد المعاد لابن القيم ج١ ص ١٧ .

٥- أخرجه أبو داود ج٢ ص٥٠٧ .

٦- انظر الرسالة للشافعي ص٤٠ .

٧- انظر صحيح البخاري ج٣٢٩ مع الفتح .

٨- أخرجه مسلم في صحيحه ج١٨ ص١٢٩ مع شرح النووي .

٩- أخرجه الترمذي في الجامع ج٧ ص٤٢٧ والدارمي في سننه ج١ ص٩٩ وأورده الدكتور محمد العجاج الخطيب في السنة قبل التدوين ص٣٠٣.

١٠- أخرجه البخاري في الصحيح ج١ ص٢١٧ والدارمي في سننه ج١ ص١٠٣ .

١١- أخرجه البخاري في الصحيح أيضاً ج١ ص٢١٥ .

١٢- أخرجه البخاري ج١ ص٢١٧ وج٦ ص١٣ .

١٣- قد ذهب الى هذا الرامهرمزي في المحدث الفاصل ج١٧ وابن قتيبه في تأويل مختلف الحديث ص٣٨٥ واختار ابن حجر في فتح الباري ج١ ص ٢١٨ وأحمد شاكر في تعليقه على الباعث الحثيث ص١٣٣ .

١٤- أخرجهما البخاري في الصحيح ج١ ص٢١٥ مع الفتح .

١٥- أخرجهما مالك في الموطأ ج٣ ص٥٨ والبخاري في الزكاة في الصحيح مع الفتح ج٤ ص٦٠ .

١٦- ج١ ص١٠٥ ولفظ الحديث مارغبني في الحياة الا الصادقة والوهط فأما الصادقة فصحيفة كتبتها من رسول الله ﷺ وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها .

١٧- انظر المسند ج٥ ص٨٥ وانظر جامع الترمذي ج٤ ص٥٧٢ .

١٨- أخرجه البخاري ج٤ ص٦٠ في الزكاة وأبو داود ج٢ ص٩٦ والترمذي .
١٩- أخرجه مالك في الموطأ ج٣ ص٥٨ وأبو عبيد في كتاب الأموال ص٣٥٧ .
٢٠- انظر منهج النقد في علو الحديث لنورالدين عتر ص٤٨ .
٢١- انظر المسند ج٦ ص٩٦ رقم ٤١٥٧ بتحقيق أحمد شاكر .
٢٢- أخرجه البخاري في الصحيح ج١ ص٢٠٩ و٢١٠ و٢١١ وأخرجه مسلم وأبو داود وغيرهم .
٢٣- انظر تدريب الراوي ج٢ ص٣٧١ ، ٣٧٢ .
٢٤- أخرجه البخاري في الصحيح مع الفتح ج١ ص٢٠٩ .
٢٥- انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٥ وسنن الدارمي ج١ ص١٠١ وجامع بيان العلم وفضله ص٥٠ لابن عبدالبر وتقيد العلم للخطيب البغدادي ص٥٤ و٥٥ .
٢٦- أخرج الترمذي مايدل على ذلك في الجامع ج٤ ص٥٧٢ من طريق ربيعة بن عبدالرحمن قال وأخبرني ابن لسعد بن عبادة قال وجدنا في كتاب سعد أن رسول الله ﷺ " قضى باليمين مع الشاهد " .
٢٧- أخرج البخاري مايدل عليها في الجهاد ج٦ ص٤٦١ مع الفتح .
٢٨- انظر بحوث في تاريخ السنة المشرقة لأكرم ضياء العمري ص٢٢٣ .
٢٩- انظر المصدر السابق حيث بعذريه لابن عبدالبر جامع مع بيان العلم وفضله ص٧٣ .
٣٠- انظر الكفاية للخطيب البغدادي ص٣٣٠ .
٣١- انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ج٤ ص٣٣٦ .
٣٢- انظر جامع بيان العلم وفضله ج١ ص٧٣ وتقيد العلم ص٨٤ و٨٥ للخطيب وقد نقل الامام أحمد في مسنده محتواها ذكر ذلك أكرم ضياء العمري ص٢٣٤ من المصدر السابق .
٣٣- انظر تاريخ السنة المشرقة ص٢٣٤ ذكر أنها مخطوطة في دار الكتب الظاهرية
٣٤- انظر أصول الحديث وعلومه ومصطلحه لمحمد العجاج الخطيب ص١٥٩ ، الى ١٦٥ وانظر أصول الحديث لمحمد العجاج الخطيب ص١٩٤ و ١٩٥ .
٣٥- انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٨٤ .
٣٦- انظر بحوث في تاريخ السنة المشرقة ص٢٢٥ أكرم ضياء العمري .
٣٧- المرجع السابق .
٣٨- المرجع السابق أيضاً .
٣٩- المرجع السابق أيضاً .

٤٠- المرجع السابق ص٢٢٦ .
٤١- المرجع السابق أيضاً .
٤٢- المرجع السابق أيضاً .
٤٣- المرجع السابق أيضاً .
٤٤- أنظر أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ص١٧٠ .
٤٥- انظر سنن الدارمي ج١ ص١٠٦ .
٤٦- انظر أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ص١٧١ وانظر سنن الدارمي ج١ ص٨٠٦ .
٤٧- أنظر أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ص١٧١ .
٤٨- المصدر السابق والآية من سورة طه رقم ٥٢ .
٤٩- في تذكرة الحفاظ ج١ ص٩٣ .
٥٠- في السنن ج١ ص١٠٤ .
٥١- في الصحيح ج١ ص٢٠٤ مع فتح الباري .
٥٢- أبو بكر قال الحافظ بن حجر هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري فعلى هذا قول البخاري أبو بكر بن حزم نسبة الى جد أبيه ولجده عمرو صحيحه وأبو بكر تابعي فقيه استعمله عمر بن عبدالعزيز على المدينة أميراً وقاضياً ولهذا كتب اليه .
٥٣- قال حدثنا العلاء بن عبدالجبار قال حدثنا عبدالعزيز بن مسلم عن عبدالله بن دينار بذلك يعني حديث عمر بن عبدالعزيز .
٥٤- أنظر بحوث في تاريخ السنة مشرقه ص٢٣٠ .
٥٥- والد البخاري اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة ترجم له ابن حبان في كتابه الثقات في الطبقة الرابعة فقال اسماعيل بن ابراهيم والد البخاري يرو عن حماد ابن زيد وروى عنه العراقيون وذكره ولده في التاريخ الكبير وقال سمع من مالك بن أنس وحماد بن زيد وابن المبارك .
٥٦- ابراهيم بن المغيرة قال الحافظ بن حجر في مقدمة هدى السادى ج٢ ص٢٥٠ لم أقف على شيء من أخباره .
٥٧- المغيرة بن بردزبة أسلم على يد اليمان الجعفي فنسب البخاري اليه نسبة ولاء .
٥٨- بردزبة أصله في الفارسية الزاع كذا يقول أهل بخارى وكان بردزبة فارسياً على دين قومه ثم أسلم ولده المغيرة كما تقدم .

٥٩- الجعفي : نسب البخاري الى بني جعفة نسبة ولاء لأن جده المغيرة أسلم على يد اليمان الجعفي فنسبوه اليه .

٦٠- قال الحافظ بن حجر قال المستنير بن عتيق أخرج لي ذلك محمد بن اسماعيل بخط أبيه وجاء ذلك عنه من طرق انهى هدى السادى ج٢ ص٢٥٠ .

٦١- أنظر تذكرة الحفاظ ج٢ ص٥٥٥ وهدى السارى ج٢ ص٢٥٠ .

٦٢- أنظر هدى السارى ج٢ ص٢٥١ .

٦٣- أنظر تذكرة الحفاظى للذهبي ج٢ ص٥٥٥ وهدى السارى ج٢ ص٢٥١ و ٢٥٢ .

٦٤ - في تذكرة الحفاظ ج٢ ص٥٥ .

٦٥- في تاريخ بغداد ج٢ ص٤ و ٥ .

٦٦- أنظر البداية والنهاية ج١١ ص٢٥ وهدى السارى ج٢ ص٢٥١ .

٦٧- أنظر هدى السارى ج٢ ص٢٥٨ .

٦٨- في تذكرة الحفاظ ج٢٢ ص٥٥٦ .

٦٩- في تاريخ بغداد ج٢ ص١٢ .

٧٠- أنظر البداية والنهاية ج١١ ص١٧ .

٧١- في هدى السارى ج٢ ص٢٦٥ .

٧٢- ج١ ص٥١ .